ثقافة الحظ والقسمة والنصيب

تجري على ألسنة معظم الناس عبارات متنوعة مثل: "**حظ عاثر**"، أو "**قسمة ونصيب**"، أو "**ضربة حظ**"، وذلك حين يجد المرء نفسه في حالة إخفاق أو غبن في معترك الحياة.

إن المتتبع للكم غير القليل من هذه العبارات المختلفة يدرك أن جميعها تشير إلى مقصد واحد يريده قائلها، ألا وهو: إن الأمر الذي كان يسعى نحوه، أو الشيء الذي كان يتمناه ويطلبه، لم يتحقق، أو لم يتم بالشكل المرجو، مما جعل صاحبه يعلل المقدمات والنتائج بأنها تبع لشيء عبثي اسمه الحظ، أو غيبي اسمه القسمة والنصيب.

تتعدد التأويلات والمقاصد التي ينشدها مرددو التعبيرات تلك، إذ إنها على تعددها تصب في النهاية في عدد محدود من الدلالات التي لا تخرج عما ذكرناه سابقاً، من لوم ما يسمى الحظ والنصيب والقسمة.

ومن اللافت للنظر أنك إذا استوقفت أحدهم لتطلب منه أن يعرف لك ما هو الحظ أو القسمة والنصيب، فستجد أن كثيراً منهم يتعثر في إعطائك تعريفاً واضحاً.

إن استخدام هذه العبارات هو نوع من توجيه إصبع الاتهام نحو محركات خفية تجرُّ الأمور رغماً عنا، وإلقاء بالمسؤولية عليها، وقد يقطع البعض أشواطاً أكبر في هذا الاتجاه ويغرقون في تلك التفاسير حتى إنهم يرون أنفسهم ريشة في مهب الريح، ينقلها الحظ، ويضعها النصيب، وتعلو بها القسمة، وتخفضها السيرورة الذاتية للأمور بعيداً تماماً عن أي تحكم بشري فيها.

obeikandi.com

لاشك بأن هناك نوعاً من الراحة النفسية لتلك الفلسفة؛ فهي تعطي الروح والعقل إجازة من مغبة البحث في الأسباب الحقيقية لمآل الأمور، وتضفي شعوراً بالأمان من ذهاب أصابع الاتهام في الاتجاه الصحيح.

ولقد غص تراثنا الكلامي بعبارات من هذا النوع:

فقد قيل: "**يلي ما لو حظ لا يتعب ولا يشقى**".

وقيل: "**حظ اعطيني وبالبحر ارميني**".

وقيل: "**الحلوة بحظّ والبشعة بحظِّين**".

وقيل أيضاً: "**غيَّرتي جوزك ما غيَّرتي حظِّك**" (جوزك أي زوجك لكن تقلب في الكلام العامي).

ولكي ننصف الموضوع فإن بعض تلك العبارات كانت نوعاً من التوجيه الإيجابي للحظ والنصيب، فقد قيل:

"**ضروب هالطينة بهالحيط إذا ما لزقت بتعلِّم**" (هذا العرف ساد في زمن مضى عند دخول العروس إلى بيت عريسها، فكانت تمسك طيناً وتضربه بالحائط، وكان يقال: إن التصاق الطين بالحائط دليل على أنها ستلصق أيضاً و تكون زوجة له مدى الحياة).

وهذا مثل إيجابي إذا تم ذكره في سياقه الصحيح؛ إذ إننا غالباً ما نذكر هذا المثل عندما نريد أن ندفع بالسامع لأن يتحرك ويأخذ موقفاً ما بدلاً من الوقوف والانتظار، بمعنى أننا نشجعه على أن يقوم بشيء بدلاً من الاحتكام إلى الحظ فقط. ولا يبتعد كثيراً هذا المثل في دفعه الإيجابي عن الإرشادات التي تنصح بها بعض علوم الإدارة وتطوير الذات، من حيث الحث على المحاولة، واختراق المجهول، وتجريب المناحي غير المألوفة؛ بغية الاكتشاف والتطوير بغض النظر عن النتائج.

obeikandl.com

أسباب اللجوء إلى ثقافة الحظ والنصيب

يعتقد علماء النفس أن الإنسان يلجأ إلى طرائق دفاعية معينة، أو تبريرات تفسر اصطدامه بحواجز معينة في حياته كانت بمنزلة العائق الذي يمنعه من الوصول إلى مبتغاه.

بهذه التبريرات يذهب الإنسان إلى منطقة التأويل المريحة، ويشعر غالباً بعدها بالارتياح، لأن الأمر الذي سعى أو كان سيسعى نحوه ولم يتحقق لم يكن ناجماً عن سبب يتعلق به، بل بسبب آخر خارج عن إرادته.

هذه هي العقلية التي يطلق عليها البعض عقلية إنسان الكهف، الذي غالباً ما كانت الطبيعة تخيفه، فيلوذ عند أول خطر إلى ملجئه الآمن عازفاً عن المخاطرة، ومؤجلاً استكشافه للعالم المحيط لوقت آخر.

فهذه الأمثال السلبية التي ملأت حياتنا واخترقت أجيالنا وبتنا نرميها يميناً ويساراً لتبرير الحظ والنصيب، هي نوع من أنواع الكهوف الفكرية العقلية والنفسية التي نحتمي بها حين نواجه ما يزعجنا ويحبط مخططاتنا في الحياة.

هذه الأمثال هي التي جعلتنا نبدو وكأننا لم نفهم كيف تسير الحياة، وكيف هي مجريات الأمور، وكيف تنال الأهداف والغايات. فالإنسان يعلم تمام العلم أنه خلق في بيئة تتحداه في كل مطلع ضوء، وأنه في كل زاوية من زوايا الحياة قد يكون هناك تحد آخر يرفعه أو يضعه أرضاً، لكن هذا التحدي سوف يرحل ويترك خيار القيام ثانية للشخص نفسه.

لا حظ ولا نصيب، إنما هو تدبير وتخطيط، ومعاركة للظروف؛ ثم النتيجة النهائية التي قد تكون معنا أو ضدنا.

ولنقل إن هناك حظاً ونصيباً قد رسم في مكان ما، هذا لا يبرر لنا الوقوف على الأطلال والانتظار، بل على العكس تماماً، يجب أن يعطينا هذا دعماً نفسياً بأن نخوض تجارب الحياة ونستمتع بالتجربة كما هي المتعة بالنتيجة، سواء أكانت لنا أم علينا.

إن الخالق لهذا الكون أراد لنا أن نستمتع بالمسير، ونستشعر الطريق، ونفرح بالعمل نفسه، ونمضي الوقت متطلعين نحو النتيجة، لكن دون أن نغرق فيها؛ فالإنسان خُلِقَ ليمضي من مشروع لآخر، ومن أمنية لأخرى، حتى يصل إلى أمنيته ومحطته الأخيرتين عندما يعود إلى الأم التي جاء منها ألا وهي أديم الأرض.

من هنا نقول: من المهم بمكان عدم إسقاط اللوم على أسباب وهمية حين لا تتحقق النتائج؛ بل من الأجدى أن تخاض الحياة ببسمة المحاولة ومتعة الطريق ورفقة الأحبة والأصحاب، إضافة إلى الاعتقاد بأن التدبير والتخطيط السابق لا بد منه، لكن اللاحق والحاصل فيما بعد هو أمر خارج عن السيطرة؛ لذا لا بد من الإكثار من الأمثلة التي تدعم الجزء الأول والتي تجعل طريق المحاولة أكثر متعة، وتجنب الأمثلة التي تشير إلى النهاية وتضع اللوم على الظروف المحيطة؛ فهذه لن تعكر صفو الرحلة الحالية التي مضت بل ربما صفو الرحلات والتجارب الحياتية القادمة.

فلسفة اتخاذ القرارات

إن اللجوء إلى استخدام ثقافة الحظ والنصيب وجعلها السبب في تفسير ظواهر الحياة يعود أيضاً بشكل أساسي إلى فلسفة اتخاذ القرار، والقصور في معرفة الطريقة الصحيحة للتوجه، وذلك عندما نكون عند مفترق طرق، سواء فيما يتعلق بزواج أو عمل أو سفر أو غيرها.

إن الطريقة الصحيحة في اتخاذ القرار تعتمد على أمور عدة؛ أولها توجيه البوصلة في الاتجاه الصحيح، أي أن نسأل السؤال المهم: ماذا نريد تماماً من أي خطوة نريد أن نخطوها؟ وهنا لابد من طرح السؤال الصحيح والشفاف والواضح والذي يعكس المصلحة العليا.

مع صغر شأن هذه الخطوة الأولى فإنه سيتبعها سلسلة من الخطوات هي التي

سترسم المسار، الذي ما إن نخض فيه حتى يصعب علينا الخروج منه، ومن هنا تأتي أهمية اتخاذ أي قرار، ومدى تأثيره في النتائج البعيدة.

ولكي نوضح الفكرة نفترض أن شخصاً ما يقف في مواجهة اتخاذ قرار، أو أمام مفترق طرق، وهذا يحصل للجميع دون استثناء، من المهم لهذا الشخص أن يحضره أمران؛ الأول هو أن القرارات الصعبة لا تكون في المواقف السهلة، وإنما تكون في المواقف الصعبة وفي المعضلات والمشكلات ومفترقات الطرق، لأن المواقف السهلة لا تحتاج إلى خيارات وإنما تسوق نفسها عبر مسارات مرسومة وواضحة. والمقصود بالقرار الصعب أنه صعب على النفس؛ لأنه قد يخالفها أحياناً؛ إذ إن موافقة القرار للنفس الإنسانية وميولها قد لا يعني أنه هو القرار الصحيح. وأما الأمر الثاني فأنه في مفترق طرق، أي هناك طريق سهل وآخر صعب؛ فالطريق السهل هو سهل على النفس موافق للرغبات معبد، لكن غير مضمون النتائج، أما الصعب فهو صعب على النفس مخالف للرغبات وفيه من المطبات ما يحتاج إلى صبر وعزم، لكن نتائجه مضمونة وتحت السيطرة. ولا بد هنا من أن يعرف كل من يقدم على الاختيار بأن قوة الإنسان تأتي من استطاعته السيطرة على مسار حياته ونتائجها، ومن هنا يمكن الجزم بأن الإنسان قادر على رسم قدره باتخاذ القرار الصحيح، فقد أعطي من قبل خالقه حرية الاختيار.

ولتوضيح الفكرة نأخذ مثالاً الزوج الذي يشتكي من سوء طباع زوجته أو من خلافاته معها أو عدم تفاهمهما، ويسند ذلك إلى القسمة والنصيب.

ألم يكن له الخيار حين اختارها زوجة له؟

يعود السبب هنا إلى التنافر الشديد في معظم الحالات التي لا تنجح فيها الزيجات بين الرغبات الداخلية للشخص أثناء قيامه بخطوة مهمة كالزواج، وبين ما يظهره من أفعال وأقوال. فحين يقدم الشاب أو الفتاة على الزواج يظهر كلاهما الرغبة في البحث عن الأفضل، فالشاب يلقي على أسماعك أفضل

الكلام عن صفات زوجة المستقبل، كذلك الفتاة، وكلاهما يطلب الصلاح والتفاهم والقدرة على تحمل المسؤولية في هذه المؤسسة الصغيرة، وقد يكون هذا هو حقيقة الأمر في بعض الحالات، لكن إن كان فعلاً هذا هو الحال في الحالات الأخرى، فلم تخفق تلك الزيجات؟ وكيف يمكن لزواج أسس على أسس سليمة ومتينة أن يخفق؟

فإن حصل الإخفاق يرجع معظم الأطراف السبب إلى القسمة والنصيب، وهما بريئان مما يحصل في مثل هذه الحالات.

غالباً ما نسمع الشاب يتكلم قبل الزواج على الصلاح والتفاهم وعلى "اظفر بذات الدين تربت يداك"، وعلى "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه"، ولو كان هذا حديث القلوب والأرواح لما أخفقت تلك الزيجات.

خلف هذه المقولات التي تتردد قبل الزواج هناك رغبات خفية لدى هذين الشخصين؛ فلو كانت تلك الرغبات متطابقة مع تلك الأقوال النموذجية لحصلنا على زواج ناجح. لكن قد تكون تلك الرغبات لا تلتقي مع تلك المقولات، فقد تكون رغبة الشاب الخفية هي جمال الفتاة، ثم يحاول أن يلبسها ثوباً فضفاضاً ينسجه من تلك الكلمات المنتقاة بعناية، كذلك الأمر بالنسبة إلى الفتاة، فقد يشدها في رغبتها الداخلية مركز الشاب وماله، ثم تزين رغبتها بتلك الأقوال المثالية.

وعليه فإن النتائج التي يعيشها الزوج أو الزوجة بعد سنين من الزواج لم تكن انعكاساً لحظ أو نصيب، بل كانت سيرورة طبيعية لمقدمات حقيقية قام بها هذا الطرف أو ذاك أدت إلى تلك النتائج.

كيف تعاملت الأمثال مع الحظ والنصيب

لم تكن أمثال الحظ والنصيب كلها سلبية بالمجمل، بل كانت في بعض الأحيان ذات تأثير إيجابي؛ فمثلاً فيما يتعلق باختيار الزوجة والزوج قيل:

" **ياآخد القرد على مالو المال بروح وبيبقى القرد بوشّك على حالو**" (بوشّك أي بوجهك، ومالو أي ماله).

مرشداً إلى البحث عن الزوجة والزوج على أسس متينة تبتعد عن الأسباب الآنية التي تزول مع الوقت، وإن زالت فقد تحيل الزواج إلى جحيم لا يطاق.

لكن في الوقت نفسه لم تدع الأمثال الحظ والنصيب من أن يكونا عنصرين أساسيين في الزواج.

فقد قيل: "**طلع الحظّ لأم ناب ومشقَّقة الكعاب**" (الكعاب أي كعب القدم، والناب أي أنياب أسنانها ظاهرة).

وقيل: "**تجوَّزنا لننستر اسقا الله أيام الفضيحة**".

أو شبِّه الزواج بالبطيخ فقيل: "**عالمكسر يابطيخ يا حمرا يا بيضا**" فنسب مستقبل الزواج إلى الحظ كلياً.

وقيل: " **كل فولة مسوسة إلها كيال أعمى**" (الكيال هو الذي يكيل الفول أو غيره بالمكيال).

وقيل: "**روحي يا حلوة بحلاوتك وتعي يا بشعة بحظك**".

وقيل: " **رضينا بالبين والبين ما رضي فينا**" (البين هو الكلمة العامية للغراب).

وقيل: " **بيعطي الحلاوة للي ما لو سنان**".

وقيل: "**مالك بالطيب نصيب**".

وقيل: "**لابق للشوحة مرجوحة ولأبو بريص قبقاب**" (الشوحة نوع من الطيور وأبو بريص نوع من الزواحف يشبه الحرباء).

وكثرة الأمثال في هذا المجال ليست فقط كثرة كلامية، بل دليل استخدام مستمر يعكس إيماناً داخلياً بقوة الحظ والنصيب في مسألة الزواج الذي فصلنا فيه لا على سبيل الحصر، وإنما على سبيل أنه مثل يمكن أن ينسحب على الكثير

من مرافق الحياة كالعمل مثلاً، فبدلاً من أن تحيل الثقافة الشعبية الإخفاق المالي في مجال العمل إلى مقدمات خاطئة اتبعها الشخص أدت إلى تلك الخسارة، كانت تحيل الأسباب إلى الحظ والنصيب:

فقد قيل: " **تاجرنا بالأكفان بطّل حدا يموت**".

وقيل: "**تاجرنا بالطرابيش صارت الناس بلا روس**" (الطربوش: نوع من غطاء الرأس للرجال وروس أي رؤوس).

أو قد تعكس الأمثال حالة إيجابية من كسب المال وتعيدها أيضاً للنصيب.

فقد قيل: "**باضتلو بالقفص**" (أي إن الدجاجة باضت له في قفصها).

ولم تنأَ الأمثال الشعبية عن تصنيف الناس وفقاً لتأثيرهم السلبي، المرتبط بالنصيب والحظ والحسد، على المال والأعمال، بل حتى الأشخاص؛ فالتطير كان له نصيب واسع في الأمثال:

فقد قيل مثلاً: "**عيونها زرق وسنانها فرق ووشها بيقطع الرزق**" (وشها أي وجهها).

أو للرجل: "**عليه وش بيقطع الرزق**" أو: "**وشّو بيقطع الخميرة من البيت**".

وقيل: " **إذا راح علبحر بنشفو**".

وقيل عن فلان مثلاً: "**متعوس الحظ خايب الرجا**".

وقيل: "**المنحوس منحوس لو علقوا عليه فانوس....**".

وقيل: "**تي تي تي تي متل ما رحتي متل ما إجيتي**".

يقول نجيب يوسف بدوي: " أينما وجدت عناصر المصادفة والحظ كان احتمال القابلية للتطير كبيراً "[1].

(١) نجيب يوسف بدوي: مجلة علم النفس، مجلد ٨، عدد ٣، نقلاً عن كتاب التخلف الاجتماعي للدكتور مصطفى حجازي.

لقد تمكن التطير من الذهن الشامي، فكان للمرأة الشامية قاموسها من العادات والمعتقدات الخرافية توارثتها من الأمهات والجدات، من ذلك أنه إذا مسحت قطة البيت وجهها بيدها، فلا بد أن ضيوفاً في طريقهم إلى البيت!

أما إذا وقف الغراب على أحد المنازل وصاح، فإن غائباً سيعود في ذلك اليوم أو الأسبوع.

وإذا شعرت بحكة في الحاجبين، فإنك ستذهب للسلام على غائب!

ولا تغسل الثياب في أيام الاثنين، لأن السيدة نفيسة دعت- في زعمهم- على غسيل الاثنين لاينقى وصاحبه لايبقى!

ولا يقصون ثوباً في أيام الثلاثاء؛ لأن هذا الثوب يذهب حريقاً أو إرثاً!

وإذا طنت أذنك اليمنى فهذا يعني أن صديقاً أو محباً يذكرك، أما إذا طنت الأذن اليسرى فعدوك هو الذي يذكرك!

ولا يقيمون أعراساً ليلة الجمعة لأن عروس الجمعة قريبة الرجعة!

ولا يدخلون قطع الصابون إلى المنازل في أيام السبت، ولا يخرجونها، لأنها قد تسبب وفاة أحد أفراد المنزل وسيغسل بها!

ولا يخرجون الأواني النحاسية من البيت بعد المغرب والسبب مجهول!

ويعطون العروس، ساعة دخولها إلى بيت الزوجية قطعة من العجين، لتلصقها خلف الباب، ولتلصق العروس معها في بيت الزوجية إلى الأبد.

ويقولون إن الفراشة التي تطير في البيت ما هي إلا روح من الأقرباء تحوم فيه، فيجب العطف عليها وعدم إيذائها.

وإذا حدثت وفاة في أحد المنازل فإنهم يصرون على إخراج المغتسل قبل المتوفى لئلا تتكرر الوفاة ثانية وثالثة[1]!

(١) سمير عبدو: التحليل النفسي للعقلية الشامية، ص ٦٢.

obeikandl.com

ولا تقلم الأظافر ليلاً كي لا يتهم الإنسان تهمة لم يقم بفعلها.

ولا يسفح الماء الساخن ليلاً لأنه يؤذي الشياطين فيؤذون الإنسان.

كل هذه المعتقدات تعكس شبه يقين بالتأثير العميق للتطير على حياة الناس.

ولا ننسى الحسد الذي ما زال له حتى الآن دور مهم في تفسير الكثير من الأمور الحياتية الطبيعية، كالموت والحياة والمرض والفقر، فقد قيل:

"**عين الحسود تبلى بالعمى**".

وقيل: "**الحسود لا يسود كل إياماتو سود**" (إياماتو أي أيامه).

فضلاً عن استخدام الخرزة الزرقاء للحرز والتعاويذ، والحدوات، وغيرها قيل: "**بدو شبِّة وخرزة زرقا**".

يقول د. مصطفى حجازي[1]: " اتخاذ الحسد كتفسير لما قد يحل بالمرء من غرم أو خسارة أو نكبة، في ماله وعياله أو مكانته، يجعل إمكانية الدفاع ضده ميسورة ووسائلها متوفرة ومعروفة. إنها الرقى والتعاويذ والسحر".

ولقد أوضح مالينوفسكي وظيفة الجبروت (وتعويض النقص) في السحر حين قال: ".. إنه رد فعل لشعور الإنسان بقصوره وقلة حيلته في عالم لا يستطيع التحكم بظواهره. فالسحر يوجد في إحدى حالتين: في حالة الجهل بالنتائج، وفي حالة الجهل بالأسباب".

للحظ والنصيب فلسفة أيضاً

إن اللجوء إلى أمور بهذا اليسر أفضل من البحث الجدي عن الأسباب الحقيقية وراء الأشياء.

قد ينطلق الكثيرون من منطق قوي يجعلهم يؤمنون بالمصادفة والحظ، ولتوضيح ذلك نفترض أن رجلاً ما يسير في غابة، وفجأة تقع عليه شجرة هرمة

(١) التخلف الاجتماعي، ص ١٥٣.

فتقتله، المنطق هنا قوي، ويوجه إصبع الاتهام إلى الحظ العاثر لذلك الشخص الذي قتلته شجرة. لكن لو نظرنا إلى الأمر من زاوية أخرى لخرج هذا النوع من حوادث (الحظ العاثر) من ذلك الإطار، فنقول مثلاً: إن الأشجار تهوي عندما تهرم في الغابات، وهذا أمر طبيعي يحصل كل يوم، لكن ذلك الرجل قد مر بالمكان والزمان غير المناسبين، فاعترض طريق عملية طبيعية تحصل بشكل يومي، فوقعت الشجرة عليه. وينسحب هذا الأمر على الشعوب التي تسكن السواحل الشهيرة بأعاصيرها القاتلة، أو سكن مشاهير هوليوود في مرتفعات هوليوود وبيفر لي، مع علمهم المسبق بأنها منطقة حرائق تأكل النار فيها سنوياً المساحات الواسعة من الأحراش ومن البيوت الفاخرة.

فإذن نحن الذين نعترض الأحداث الطبيعية ونعيش تحت رحمتها، ومن ثم فإن أي ضرر ينجم عن ذلك الخيار لا يمكن تصنيفه تحت عنوان الحظ والنصيب أو المصادفة.

كذلك الأمر فيما يتعلق بوصفنا للأشياء، تماماً مثل كوب الماء الممتلئ إلى نصفه، فالبعض يرى النصف الفارغ والبعض يرى النصف المليء، كقولنا إذا تعرض شخص ما لحادث: إن حظه رائع إذ إنه نجا بأقل أضرار ممكنة، في حين أن هناك آخرين يقولون: إن مجرد تعرضه لحادث - بغض النظر عن النتائج - هو حظ عاثر.

يقول الشاعر إيليا أبو ماضي:

أيها ذا الشاكي وما بك داء كيف تغدو إذا غدوت عليلا
إن شر الجناة في الأرض نفس تتوقى قبل الرحيل الرحيلا
وترى الشوك في الورود وتعمى أن ترى فوقها الندى إكليلا
أيها ذا الشاكي وما بك داء كن جميلاً ترى الوجود جميلا

وبالخلاصة نقول: إن ما نقرره ونخططه وما نضعه من مقدمات، هو الذي يقودنا إلى النتائج، فالاختيار الخاطئ للزوجة، والتخطيط السيئ في العمل،

وأكل الطعام الملوث، كل ذلك مقدمات لنتائج محتومة صنعناها بأيدينا لا دخل للحظ ولا للحسد فيها.

إن البون الشاسع بين ما نضمره من رغبات وما نظهره من أقوال يضعنا في المسار الخاطئ، وقد قيل: "احذر ما تتمناه فقد يتحقق"، لأن الأماني الدفينة والخفية هي الأماني الحقيقية، وهي المحرك الفعلي للعقل في اتخاذ القرار بهذا الاتجاه أو ذاك، لذلك من المهم أن نكون وقافين على رغباتنا الحقيقية في كل أمر وعند كل قرار يتخذ في الحياة. وقيل أيضاً: "إن القرارات التي نتخذها تملي علينا نوع الحياة التي نحياها" وهذه المقولة فيها من الصحة الكثير.

إن كلمتي القسمة والنصيب أو الحظ العاثر، وما جرى في ركبهما من أمثال، قد درجت على الألسن، فتلقتها ولاكتها واستخدمتها في كل شيء حتى باتتا المشجبين اللذين يعلق كثير من الناس عليهما أسباب الإخفاق والإحباط. والأمثال الشعبية سواء أكانت انعكاساً لهذا الحال أم سبباً فيه فإنها المكون المهم لتلك الثقافة.

obeikandl.com